

أوراق علمية

(52)

فَبِأَيِّ فَهمٍ يُؤمِنُون؟

مُناقَشَة لِإمكَانِيَّة الاستِغنَاءِ باللُّغَة عَن فَهمِ الصَّحَابَة

إعداد

عَمَّار بنُ مُحَمَّد الأَرْكَانِي

باحث بمركز سلف للبحوث والدراسات

المقـــدمـــــة:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد: فمن بداهة الأمور أن كلّ من أراد أن يستوضح قضيَّة أو أمرًا سيتجه للبحث عنه عند ذويه ومن ابتكره و شارك في صناعته، فمن أراد أن يستوعب أفكار أرسطو ذهب يستعرض نصوص أصحابه والفلاسفة من بعده، ومن أراد الاطلاع على دين النصرانية ذهب يدرس أقوال المسيح عليه السلام وتلاميذه والقساوسة من بعدهم، ومن أراد أن يعرف تاريخ العصور المظلمة سأل أهل التاريخ الأوربي، ومن أراد أن يعرف نظريَّات نيوتن وأينشتاين بحث عنها عند العلماء التجريبيين، ومن أراد أن يكشف أسرار تقنيةٍ ما سأل مخترعيها و صانعيها وحاورهم، ومن أراد أن يتعلَّم صنعة جالس حذَّاقها وحذا حذوهم، حتى صار عندنا اليوم ما يُعرف بالتخصُّص، فأصبح لكلِّ شيءٍ متخصِّصون فيه متعمِّقون في دقائقه، لا يكاد يملك الخبرة في الشيء المتخصَّص فيه غيرهم.

ولكن ماذا عمَّن يريد أن يعرف الإسلام الحقَّ، ويفهم كتابه الكريم وتعاليم نبيِّه محمَّد صلى الله عليه وسلم، يسأل من؟ ويقرأ لمن؟ ويستعين بفهم من؟

لا يكاد يستريب العاقل أن أوَّل من نرجع إليهم في ذلك هم أوَّلُ من نزل إليهم القرآن، وخاطبهم بلسانهم، وعاصروا أحداثه وقضاياه، فوعوه وامتثلوه، وحَكَم على عقائدهم وأقوالهم وأفعالهم وحكَّموه، ونهج لهم منهج الحياة فانتهجوه، حفظوا حروفه، وأقاموا حدوده، فكانوا حقًّا تجسيدا حقيقيا للإسلام.

ولكن ثمَّة من يزعم أنه يمكن الا ستغناء عن الـ صحابة الكرام في فهم كلام الله تعالى وكلام ر سوله صلى الله عليه و سلم!! ويُكتفى في فهمهما بالا ستناد على اللغة العربية وقواعدها!!

فهل يـصحُّ قولهم هذا؟ وهل يمكن أن تكون اللغة بمجردها بديلًا عن فهم الـ صَّحابة للوحيين؟

هذا ما سنضعه على طاولة النقاش في هذه الورقة.

حال السلف مع فهم الصحابة رضي الله عنهم:

لم يزغ الـسَّلف الـ صَّالح عن هذه الحقيقة الفطريَّة البدهيَّة، فاعتمدوا في فهم كلام الله تعالى وكلام ر سوله صلى الله عليه و سلم على فهم تلاميذ ر سول الله صلى الله عليه وأ صحابه، بل كان الأخذ بفهم الـصحابة ديدنهم وهجِّيراهم، وبه عُرفوا، وعليه عوَّلوا، وبه تعلَّموا، وإياه علَّموا.

فهذا حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عبَّاس ر ضي الله عنهما رغم اجتماع ميزابي الشَّرف فيه (الـصُّحبة والقرابة)، إلا أنه اختار أن يفهم كلام الله تعالى وكلام ر سوله بفهم أ شياخ الـ ـَّصحابة ممَّن سبقه في العلم والفهم، وبذل في ذلك كل البذل، وتحمَّل المشاق، وتجشَّم العناء؛ ليأخذ القرآن والسنة بفهم أولئك، وها هو يقول عن نفسه ر ضي الله عنه: لما توفي ر سول الله صلى الله عليه و سلم قلت لرجل من الأنـ صار: يا فلان، **هلم فلنـ سأل أ صحاب النبي صلى الله عليه و سلم**، فإنهم اليوم كثير، فقال: واعجبًا لك يا ابن عباس! أترى الناس يحتاجون إليك وفي الناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من ترى؟! فترك ذلك، وأقبلتُ على المـ سألة، فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل فآتيه وهو قائل، فأتوسد ردائي على بابه، فتسفي الريح على وجهي التراب، فيخرج فيراني، فيقول: يا

ابن عم رسول الله، ما جاء بك؟ ألا أرسلت إليَّ فآتيك؟! فأقول: لا، أنا أحق أن آتيك، فأسأله عن الحديث[1].

وقد جلَّى موقفه من هذه القضية حين ناقش الخوارج وناظرهم حيث قال: "أتيتكم من عند أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم المهاجرين والأنصار، ومن عند ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم وصهره، وعليهم نزل القرآن، **فهم أعلم بتأويله منكم**، وليس فيكم منهم أحد، لأبلغكم ما يقولون، وأبلغهم ما تقولون"[2].

ولأجل هذا المنهج القويم كان ابن عباس مقدَّمًا في الصحابة رضي الله عنهم، ومقرَّبًا من مجلس أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه.

وتتابع الرَّعيل الأول على هذا المنهج في فهم النصوص، فهذا عمر بن عبد العزيز (٦٨ه) -رحمه الله تعالى- ينصُّ على ذلك ويقول: "فارض لنفسك ما رضي به القوم لأنفسهم؛ فإنهم عن علم وقفوا، وببصر نافذ قد كفوا، ولهم كانوا على كشف الأمور أقوى، وبالفضل لو كان فيه أحرى، فلئن قلتم: أمرٌ حدث بعدهم، فما أحدثه بعدهم إلا من اتبع غير سنتهم، ورغب بنفسه عنهم، إنهم لهُمُ السابقون، فقد تكلموا منه بما يكفي، ووصفوا منه ما يشفي، فما دونهم مقصر، وما فوقهم محسر، لقد قصر عنهم آخرون فضلوا، وإنهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم"[3].

وهذا الإمام الشافعي (٢٠٤هـ) -رحمه الله تعالى- يبين حالهم والواجب علينا تجاههم، فيقول: "علموا ما أراد رسول الله ﷺ عاما وخاصا، وعزما وإرشادا، وعرفوا من سنته ما عرفنا وجهلنا، وهم فوقنا في كل علم واجتهاد وورع وعقل، وآراؤهم لنا أحمد

---

(١) رواه الدارمي (١/ ٤٦٧) برقم (٥٩٠)، والإمام أحمد في فضائل الصحابة (٢/ ٩٧٦) برقم (١٩٢٥)، وصحح محققاه إسناد الحديث.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٨٥٢٢)، وصححه الضياء في المختارة ١٠/ ٤١٣-٤١٤.

(٣) ينظر: الشريعة للآجري (٢/ ٩٣٠).

وأولى بنا من رأينا عند أنفسنا، ومن أدركنا ممن يرضى أو حكي لنا عنه ببلدنا صاروا فيما لم يعلموا لرسول الله ﷺ فيه سنة إلى قولهم إن اجتمعوا، أو قول بعضهم إن تفرقوا، وهكذا نقول، ولم نخرج عن أقاويلهم، وإن قال أحدهم ولم يخالفه غيره أخذنا بقوله"(١).

وفي ذات القـضية يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى: "معرفة ما أراد الله ورسوله ﷺ بألفاظ الكتاب والسنة؛ بأن يعرفوا لغة القرآن التي بها نزل، وما قاله الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وسائر علماء المسلمين في معاني تلك الألفاظ؛ فإن الرسول لما خاطبهم بالكتاب والسنة عرّفهم ما أراد بتلك الألفاظ، وكانت معرفة الصحابة لمعاني القرآن أكمل من حفظهم لحروفه، وقد بلَّغوا تلك المعاني إلى التابعين أعظم مما بلغوا حروفه؛ فإن المعاني العامة التي يحتاج إليها عموم المسلمين مثل معنى التوحيد، ومعنى الواحد والأحد، والإيمان والإسلام، ونحو ذلك، كان جميع الصحابة يعرفون ما أحب الله ورسوله ﷺ من معرفته"(٢).

وما كانوا ليُعرضوا عن فهم الصَّحابة ورسولُ الله صلى الله عليه و سلم و سم أهل السُّنة بأنهم يكونون على ما كان عليه أصحابه حيث أجاب عن شعارهم حين سئل عنهم: ((**ما أنا عليه وأصحابي**))(٣).

فالأخذ بفهم الصحابة هو مقتضى العقل، وهو ما انتهجه السَّلف في حياتهم، وهو المنهج الحق الصَّحيح في فهم كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلَّم.

---

(١) ينظر: أعلام الموقعين (١/ ٩٠).

(٢) مجموع الفتاوى (١٧/ ٣٥٣).

(٣) رواه الترمذي (٢٦٤١)، وقال: "حديث مفسر غريب، لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه"، وحسنه ابن العربي في أحكام القرآن (٣/ ٤٣٢)، والعراقي في تخريج الإحياء (٣/ ٢٨٤).

ولسنا نطيل القول في حجية فهم الصحابة؛ فقد تطرَّقنا له في مقالات أخر[1]، وإنما قدَّمنا بها لأهميتها.

بيد أن نقاشنا في هذه الورقة مع من يريد الاستغناء عن فهم الصَّحابة والاعتماد على اللغة في فهم الوحيين.

فماذا لو لم نَعمل بفهم الصحابة؟

بأيِّ شيءٍ سنفهم النصوص؟

هل يمكننا الاستغناء بأهل اللغة عن فهم الصَّحابة؟

فيقال أوَّلًا: إن هذا السُّؤال مشتمل على مغالطة منطقيَّة؛ فإن الصحابة الذين ننادي بالرجوع لفهمهم هم أهل اللغة والبيان الذين يُحتجُّ بلغتهم، وإن لم يكونوا هم فمن هم؟! إن لم يكن القرشيُّون وأهل مكة والمدينة من الصَّحابة هم العرب فمن هم؟!

إن لم يكن أبو بكر القرشي التميمي[2] وعمر بن الخطَّاب القرشي العدوي وعثمان بن عفان القرشي الأموي وعلي بن أبي طالب القرشي الهاشمي وعبد الله بن مسعود الهذلي وغيرهم من الصَّحابة من أهل اللغة فمن هم أهل اللغة إذن؟!

وهؤلاء أجلُّ وأرفع من أن نحتاج إلى الاستشهاد لهم من كلام غيرهم، ولكن هذا الأحنف بن قيس التميمي يقول: " سمعت خطبة أبي بكرٍ الصديق وعمر بن الخطاب

---

(١) ينظر: مقال: فهم الصحابة المدلول والحجية https://salafcenter.org/٦٥٦/، ومقال: معيارية فهم الصحابة للنصوص الشرعية: https://salafcenter.org/٢٧٨/.

(٢) وللاستزادة ينظر: من بلاغة الخطاب عند أبي بكر الصديق: https://platform.almanhal.com/Files/٢/٧٢١٤٢، ونماذج من فصاحة الصحابة: https://dorar.net/akhlaq/١١٦٣.

وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالبٍ رضي الله عنهم، والخلفاء هلم جرًّا إلى يومي هذا، فما سمعت الكلام من فم مخلوقٍ أفخم ولا أحسن منه من في عائشة رضي الله عنها"[1].

ناهيك عمَّن إليه المنتهى في الفصاحة والبيان من أمثال: لبيد بن ربيعة وحسان وابن رواحة وكعب بن مالك وكعب بن زهير رضوان الله عليهم أجمعين، وناهيك أيضًا عمَّن اشتهر منهم بتفسير كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلَّم كابن عبَّاس الذي جمع أطراف الشَّرف بين جنبيه فصاحةً وعلمًا ونسبًا وعبادةً وجاهًا، وحفظه واستحضاره لأشعار العرب في جواباته لنافع بن الأزرق خير شاهدٍ على ما نقول.

ولهذا قال من قال من العلماء: إن الصحابة أعمق فهمًا لكلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم من كلِّ من بعدهم؛ لأنه بلسانهم نزل، ولأنهم عاصروا الأحداث التي فيها حدثت، كما سبق قول الإمام الشافعي -رحمه الله تعالى-: "عَلِموا ما أراد رسول الله ﷺ عامًّا وخاصًّا، وعزمًا وإرشادًا، وعرفوا من سنته ما عرفنا وجهلنا، وهم فوقنا في كل علم واجتهاد، وورع وعقل"[2].

بل إنهم بلغوا شأوًا بعيد المنال، حتى إن كثيرًا ممَّا فهموه -رضوان الله عليهم- يخفى على من بعدهم سواء في كلام الله تعالى أو كلام رسوله صلَّى الله عليه وسلم، يقول ابن تيمية -رحمه الله تعالى-: "للصحابة فهمٌ في القرآن يخفى على أكثر المتأخرين، ومعرفةٌ بأمور من السنة لا يعرفها أكثر المتأخرين"[3].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٢) برقم (٦٧٣٢)، وسكت عنه الذهبي في التلخيص، ورواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٨/ ١٥٢٢) برقم (٢٧٦٧).

(٢) ينظر: أعلام الموقعين (١/ ٩٠).

(٣) مجموع الفتاوى (١٩/ ٢٠).

ويقرر الشاطبي -رحمه الله- ذلك في موافقاته: "وأما بيان الصحابة فإن أجمعوا على ما بيَّنوه فلا إ شكال في صحته...، وإن لم يُجمعوا عليه؛ فهل يكون بيانهم حجة أم لا؟ هذا فيه نظر وتفصيل، ولكنهم يترجَّح الاعتماد عليهم في البيان من وجهين:

أحدهما: معرفتهم باللسان العربي؛ فإنهم عرب فصحاء، لم تتغير ألسنتهم ولم تنزل عن رتبتها العليا ف صاحتهم؛ فهم أعرف في فهم الكتاب وال سنة من غيرهم، فإذا جاء عنهم قول أو عمل واقع موقع البيان؛ صح اعتماده من هذه الجهة.

والثاني: مبا شرتهم للوقائع والنوازل، وتنزيل الوحي بالكتاب وال سنة؛ فهم أقعد في فهم القرائن الحالية وأعرف بأ سباب التنزيل، ويدركون ما لا يدركه غيرهم بـ سبب ذلك، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب.

فمتى جاء عنهم تقييد بعض المطلقات، أو تخصيص بعض العمومات؛ فالعمل عليه صواب، وهذا إن لم ينقل عن أحد منهم خلاف في المسألة، فإن خالف بعضهم فالمسألة اجتهادية"[1].

إلى هنا نكاد ننتهي من الجواب على ذلك الإ شكال الذي أوردناه، فهذا في الحقيقة كافٍ لدحضه، وإغلاق ملفِّ القضيَّة.

ولكن دعنا نتنزَّل قليلًا، ونـ ساير من يقول بأن اللغة قد تغنينا عن فهم الـ َّصحابة في إدراك معاني النصوص الشرعية.

إن أقصى ما يستطيع من يدَّعي ذلك أن يأخذ رجل اللغة عن بعض العرب بأن يعيش بين أظهرهم ويتكلَّم بكلامهم، ويناقش نقا شاتهم، ويحاور بأمثلتهم وحججهم، ويستعمل مفرداتهم وتركيباتهم، ثم بعد ذلك يقيس بين تلك اللغة ولغة القرآن. ولا يـ صفو له ذلك إلا إذا اتحد المقصود باللفظين في المعنى دون زيادة أو نقص.

---

(١) الموافقات (٤/ ١٢٧).

ولا يختلف أحدٌ تذوَّق لغة الوحي وعرف مراميه ومعانيه أنها لغة رفيعة لا تكاد تقاربها لغة، فضلًا عن أن تساويها أو تعلو عليها، فإعجاز القرآن لا يكاد يخفى على من استبصره، فإنها جمعت العقلاني والوجداني في آن، كما أنها ألفت بين الإيجاز والإسهاب في إيوان، وضمَّت إلى رونق لغتها رصانةً وقوةً لا يبلغها دهاة الأقلام، ووضِعت كل سكنة وحركة في أكمامها، فهي ملتقى نهايات الفضيلة البيانية كلها على تباعد ما بين أطرافها[1].

"فجنس ما دل على القرآن ليس من جنس ما يتخاطب به الناس في عادتهم، وإن كان بينهما قدر مشترك، فإن الرسول جاءهم بمعان غيبية لم يكونوا يعرفونها، وأمرهم بأفعال لم يكونوا يعرفونها، فإذا عبر عنها بلغتهم كان بين ما عناه وبين معاني تلك الألفاظ قدرٌ مشترك ولم تكن مساوية لها، بل تلك الزيادة التي هي من خصائص النبوة لا تعرف إلا منه"[2].

فأنَّى لقياس أولئك أن يتمَّ؟!

وأنى لهم أن يدركوا جميع ما أراد القرآن من معان بقياسهم ذلك؟!

وهذا ما خصَّ به حبرُ الأمة العلماءَ حين قال: "التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله"[3]. فتأمل كيف فرَّق بين ما يُدرك باللغة، وما يُدركه العلماء.

إن ما ذكرناه سابقًا هو ما يعتري من باشر أهل العربية، وتذوَّق لغتهم بسمعه، وشمَّها بأنف بيانه، وأخذ عنهم اللغة كفاحًا[4]. ودون هذه المرتبة العالية مراتب، تقف عندها ركاب المدَّعين لفهم الوحي باللغة وتجاوز الصحابة الكرام رضوان الله عليهم.

---

(١) ينظر: النبأ العظيم د. محمد دراز (ص: ١٠٦).

(٢) جواب الاعتراضات المصرية لابن تيمية (ص: ١٧).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (١/ ٧٠)، تفسير ابن كثير ت: السلامة (١/ ١٤).

(٤) أي: مباشرة.

المرتبة الثانية: أن يأخذها عمَّن باشر بعض العرب وسمع منهم شعرهم ونثرهم، فهو حينئذٍ يأخذها نقلًا عمَّن با شر العرب، و سل أهل النَّقل عن عيوب النَّقل وعلله وانقطاعاته وسقطاته وتخليطاته.

فإن كلَّ ما توخَّاه علماء الحديث النبوي من عيوب النَّقل وذادوه عن سنة المصطفى عليه الـ صلاة والـ سلام سيعتري هذا النَّقل ويعيبه، بل وأكثر من ذلك؛ فكيف واللغة غير الحديث؟! فإن المولى عزَّ وجلَّ سخَّر لدينه ووحيه القرآني والنبوي من يـ صونه ويحفظه، ويفني دونه الأموال والأعمار، فرجال الحديث أعجوبةٌ من أعاجيب الزَّمان، ولا مقارنة بين ناقلي اللغة وناقلي الحديث، فشتان بينهما شتان.

وحينئذٍ يكون الأخذ بقول من ا شتغل بالنـ صوص ولغتها ومعانيها مبا شرةً أقوى برهانًا وأقصر طريقًا وأقرب لنيل المراد ممَّن أخذ اللغة عن ناقليها، ثم قايس بها النصوص القرآنية والنبوية.

المرتبة الثالثة:

أن يأخذ اللغة ممَّن لقيَ من نقل عن العرب الأقحاح، وذكر أنه فهم معنى قولهم، وهذا كحال أ صحاب المعاجم الذين يـ شرحون كلام العرب بعباراتهم، فالأ صمعي مثلًا حين جلس مع الأعراب وأهل البادية هو من هذا الصِّنف؛ فهو قد سمع اللُّغة ممن لقي من نقل عن العرب الذين يُحتج بهم.

وهذا أبعد ممَّا سبقه، وآفاته لا توازى بآفات ما سبقه، واحتمالات الخطأ فيه أكثر، فيحتمل أن ذلك الـ شارح أخطأ في فهم من نقل عنهم، أو يكون قد فَهم منهم ولكن لم يهتد إلى العبارة الـ صحيحة، أو عبَّر بـما هو أ قلُّ من المعنى المراد، إلى غير ها من العيوب والاحتمالات.

المرتبة الرابعة: أن ينقل عن كتب هؤلاء، فتطول السلسلة، ويعتريها من الآفات كثير، والسنة وفهم الصحابة والسَّلف أولى منها وأقوى بلا شك.

وأقل من هذا كلِّه أن يأخذ اللغة بالقياس النحوي والتصريفي، ويعتريه ما يعتري سابقه وأكثر.

فنحن بين خيارين في فهم النصِّ إذًا:

إما أن نأخذ بفهم الصحابة ونختصر الطريق، ونوقن بصحة الفهم وصحَّة المعنى ودقة العبارة، إلى جانب مواكبة السياق الذي قيل فيه النص، ونؤمن بكلام الله تعالى ونصدِّقه ونعمل به.

وإما أن نستبدل الأدنى بالذي هو خير، ونأخذ بفهم من هو أضعف منهم بمراحل في اللغة، وندخل في عالم الظنون والاحتمالات، وتبقى القلوب بين الشكِّ والتردُّدات، إن أصبنا مراد الله ورسوله مرةً أخطأناه مرَّات، وأودى بعقولنا في مهاوي التحريف، كما هو حال أهل الضلال(1).

أفغير هذين الطَّريقين من طريق؟!

نعم هناك طريقٌ ثالث، ولكنه طريق من حكم على عقله بالإعدام، وعلى اللغة بالعبثية والإخلال، وعلى كلام الله وكلام رسوله بالعيِّ والإلغاز!!

وهذا حال من زعم أن نصوص القرآن والسُّنة لا معنى لها، سواء أحكم بذلك على كلِّ النصوص أو بعضها، وهي حال تأباها العقول النيِّرة والفطر السَّوية، ولا يتقبَّلها إلا من شابه شائبة البهائم والعجماوات؛ ولذا نجد المولى سبحانه وتعالى استنكرها واستهجنها في مواضع كثيرة، فوصف الله تعالى المؤمنين بأنهم: {إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا} [الفرقان: ٧٣]، ووصف الكافرين بقوله تعالى: {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} [البقرة: ١٧١]، وقال تعالى: {خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ} [البقرة: ٧]، وقال تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ

---

(١) ينظر: جواب الاعتراضات المصرية لابن تيمية (ص: ١٩).

وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا} [الأنعام: ٢٥]، وأمر سبحانه وتعالى بفهم كلامه سبحانه وتدبُّره والعمل به؛ قال تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد: ٢٤].

وبيَّن سبحانه وتعالى أن هذا الكتاب نور وهدى للعالمين، وأنه منهاجٌ ودستورٌ للمسلمين، وأنه جعله في أعلى درجات الوضوح والبيان، وفي أوج الفصاحة والحجية والبرهان، وما كان ذلك الوضوح والبيان إلا لفهمه وتدبُّره والاتعاظ به وتطبيقه واقعًا؛ ليتحقق التقوى ويسود العدل والخير بين البشرية جمعاء، وكلَّما ورد ذكر بيان القرآن وفصاحته عقَّبه المولى بهذه العلة، كما قال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [يوسف: ٢]، وقال تعالى: {قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [الزمر: ٢٨]، وقال تعالى: {وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ} [الأحقاف: ١٢] وقال تعالى: {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا} [طه: ١١٣]، وقال تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ} [الشورى: ٧]، وقال تعالى: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى} [فصلت: ٤٤].

وما ذكرناه من الطَّريقين المذمومين هما مسلك أهل الزيغ في كلِّ عصر، وكلا المسلكين قد سلكهما أخبث خلق الله على مر العصور، كما حكى الله عنهم: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ} [البقرة: ٧٨، ٧٩]، وقال عنهم: {أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا

الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} [البقرة: ٧٥-٧٧].

وهو أيضًا حال المبتدعة في القرون الأولى كما ذكر ذلك عبد العزيز الكناني في مناظرته الشهيرة لبشر المريسي حين ناقشه في بعض مسائل النصوص وفهم الصحابة لها، فأجاب وهو في مجلس المناظرة عند المأمون: "يا أمير المؤمنين أطال الله بقاك، إنه يحب أن يخطب ويهذي بما لا أعقله، ولا أسمعه، ولا ألتفت إليه، ولا أتى بحجة، ولا أقبل من هذا شيئًا". فاستنكر عليه الإمام الكناني -رحمه الله تعالى- ادِّعاءه العلم مع عدم علمه بقول الله ورسوله وبفهم السَّلف والعلماء رضوان الله عليهم.

قال رحمه الله تعالى: "فقلت: يا أمير المؤمنين أطال الله بقاك، من لا يعقل عن الله ما خاطب به نبيه صلى الله عليه وسلم، وما علمه لعباده المؤمنين في كتابه، ولا يعلم ما أراد الله بكلامه وقوله، يدعي العلم، ويحتج بالمقالات والمذاهب ويدعو الناس إلى البدع والضلالات؟!".

ولكن المبتدع تمادى في غيِّه، وادَّعى أنه يفهم النُّصوص كفهم الإمام الكناني رحمه الله تعالى، فقال: "أنا وأنت في هذا سواء، أنت تنتزع بآيات من القرآن لا تعلم تفسيرها ولا تأويلها، وأنا أرد ذلك وأدفعه حتى تأتي بشيء أفهمه وأعقله".

فجلى الإمام له الفرقان بين من فهم القرآن والسنة بفهم السلف وبين من لم يفهم، وقال: "يا أمير المؤمنين، قد سمعت كلام بشر وتسويته فيما بيني وبينه، ولقد فرق الله فيما بيني وبينه، وأخبر أنا على غير السواء.

قال [أمير المؤمنين]: وأين ذلك لك من كتاب الله عز وجل؟

قلت [الإمام الكناني]: قال الله عز وجل: {أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} [الرعد: ١٩]، فأنا -والله يا أمير المؤمنين- أعلم

أن الذي أُنزل عليه صلى الله عليه وسلم هو الحق، وأومن به، وبشرٌ يشهد على نفسه أنه لا يعلم ذلك ولا يعقله ولا يقبله، ولا هو مما يقوم لي به عليه حجة، فلم يقل كما قال الله عز وجل، ولا كما علَّم نبيَّه صلى الله عليه و سلم أن يقوله، ولا كما قال موسى عليه السلام، ولا كما قالت الملائكة، ولا كما قال المؤمنون، ولا كما قال أهل الكتاب، ولقد أخبر الله عز وجل عن جهله، وأزال عنه التذكرة، وأخرجه عن جملة أولى الألباب"[1].

ختامًا: أيها الفطن اللبيب، تدبُّر كلام لله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه و سلم وفهمه بفهم الصحابة والسلف هو ما أمر به الله ورسوله أوَّلًا، وهو ما تنادي به الفطرة أيضًا، فضلًا عن كون العلماء الأفذاذ ما بلغوا إلا بالسير عليه، فضلًا عن كونه أسلم الطرق وأعلمها وأحكمها، بل لا سلامة إلا به، ولا يبلغ المطلوب إلا من سلكه، فما لنا ابتعدنا عن هديه وهو الأقوم؟! {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} [الإسراء: ٩].

(١) الحيدة والاعتذار (ص: ٤٢).